

ليلة السائر

سار المحراث يشق الأرض بقلب عاليها أسفلها وأسفلها عاليها وقد دق
حذاء اللامع في باطنها ، وتحركت البهيمنان يتبعهما جسد طويل
متين البنيان ، وقد أمسك بيساره خشبة المحراث ، ويمناه عصا طويلة
يستعصم بها البهيمنين كلما بدا منهما تكاسل أو تراخ .

كان ذلك في إحدى القرى القريبة من القاهرة ، وكان الجو قد
شملته ضباب ثقيل لم تستطع شمس الصباح بأشعتها الواهنة الرقيقة أن
تبدده أو تنفذ خلاله ، فبدأت ذراتها البيضاء معلقة في الجو ساكنة راكدة
لا يكاد المرء يشاء ويتنفس حتى يتصاعد من فمه دخان كثيف ..
وظهرت قطرات الندى تجمع على أوراق البزيم الداكنة الخضرة ..
وتوقفت إحدى البهيمنين ترعى بقايا حفرة الأرض .. فتصاعد من
ورائها صوت بنهرها : (حا) ، وكان الصوت صوتا نائيا على ما فيه
من غلظ وخشونة فقد كان السائر وراء المحراث امرأة .. أجل .. كان
الجسد الطويل القارع ، المتين البنيان ، هو جسد أم بهانة .

وقد أخذت تحرث الجزء الباقي من أرضها الذي لم يتم زرع
بعد .. لم يكن المرأة لتفترق عن الرجل في شيء .. وأعني بالرجل ..
الرجل الشديد المراس ، القوى الشكيمة .. المهاب الجانب .. العوقور
الكرامة .. وكانت تقوم على زرع أفدنتها الخمسة بنفسها لا يعينها في
ذلك سوى ابنتها بهانة ، وعامل أو عاملان تستأجرهما في وقت تغير
الزروع .. واستمرت المرأة في قلب الأرض جيئة وذهابا ينما أخذ
ذهنها يكدر في التدبير .. ماذا فعلت ؟ .. وماذا ستفعل ؟ .. هل تباع فدان
البرسيم - الفحل - أم تمهل قليلا ؟ .. ثلاثة جنيهات للقيراط ليست
بالسر الذي تطمع فيه .. ولكنها تحشى أن استمرت في الرفض أن
تضيع الفرصة ويور البرسيم .. ثم أن السيد الساقط خير من غيره ..
فهو مضمون في القلع .. سريع في حمل البرسيم لأنه متعهد بالجيش ،
وسيجلي لها الأرض في يوم أو يومين . فستطيع أن تتفع بزراعتها مرة
أو مرتين لحضروات .. ثم قفز ذهبا فقرة سريعة إلى محصول الذرة ..
لقد كان الإنتاج وقيرا في هذا العام .. وهي تأمل أن تسدد منه الحال ..
وتباع الكسوة وتوقف ذهنها عن التفكير فجأة ، وبدرت منها صيحة
غاضبة محدرة : (يا بهانة حولى المياه .. لقد كاد الحوض أن يفرق)
وعلى مسافة قريبة بذت بهانة وقد انحست تضرب الأرض بقأسها وتحول
المياه عن حوض البرسيم القريب .. إلى حوض آخر .. ثم انصبت واقعة
عينا جسدها استواء وامتلاء .. ورر صدرها برورا طبعيا غير متكلف
ولا مصطنع وسألها أمها :

- هل أحضرت تقاوى القث لكي يدره على الفحل ؟

- أجل .. لقد وضعنها بحوار الجميرة .

وتحول بصير المرأة الى الجميزة المائعة على قارعة الطريق قرأت
بحوارها رجلا يفتطمع بفأسه من كرم السواد القائم أسفل الشجرة ، وعاد
ذهن المرأة في الشroud مرة أخرى .. وبدأ على وجهها تحميم شديد ..
لشد ما كان يسوءها من ابتها هذا التهافت منها على محمود ابن الشيخ
معاطي .. ماذا حدا بالفتاة الى أن تخصص هذا الفنى وحده دون سائر
خلق الله بعظفها أو حبها .. هذا المخلوق الذى كانت تحس له المرأة
حقدا وضغينة لم تستطع الأيام فى مرها أن تصحوها أو تخفف من
حدتها .. لقد كانت ترى فيه ملامح أمه .. أمه الفاجرة العاهرة التى
أفسدت عليها حياتها ، وصلتها الراحة والنعيم .. وانطلق ذهنها يعدو
فى ضروب الماضي العيد .. المظلم الأرجاء .. الشبيه بذلك الضباب
الذى يحيط بها .

وبدأت تستعرض صورة الباهتة ، فأبصرت بنفسها فى ربيع العمر
ومستهل الحياة .. وأبصرت زوجها فى ريعان شبابه ومن حولها الأرض
الطيبة .. وقد أخرجت الزرع من باطنها أخضر تجرى فى عروقه ماء
الحياة .

كانت تحس وقتذاك أن أخذتھما الثلاثة ضيعة واسعة .. وأن
بينھما الطينى قصر شامخ .. وهل يمكن أن يحس صاحب الضيعة
وصاحب القصر بسعادة أكثر من تلك السعادة التى تغبض بها نفسها ؟
وتذكرت كيف وضعت بهانة وكيف ألم بنفسها حزن .. حسية أن
يحزن زوجها لأنها لم تنجب له ولدا .. ولكن زوجها لم يحزن ولم
يكذب .. على النقيض ، لقد كانت فرحة بالطفلة لأنوصف ..
وتذكرت بعد ذلك كيف بعثت الطفلة فى حياتها ضياء فوق ضياء ..
ومحتها هناء فوق هناء .. وكيف كان أبوها يتفأل بها فلا يفتح عينيه

في الصباح الا اذا أحضرتها له حتى تكون أول ما يفتح عليه بصره ..
واشهرت قائمة بحياتها راضية مرضية حتى بدأت تبصر بأول سحب
الشفاء تعكر صفو حياتها .. انها تذكر أول يوم رأت فيه تلك السحب
الصعنة حين أقبل عليها زوجها يقول لها في غير اكتراث :

- هل سمعت ما فعله ذلك الشيخ المحترف ؟

- من ؟

- الشيخ معاطي !

- الشيخ معاطي رجل محترف ! .. حرام عليك .. انه من أفاضل
الناس .

- لقد كان من أفاضلهم حتى أمس .. أما اليوم فقد أضحي من
مخايلهم .

- ولم ؟ ماذا حدث منه ؟

- لقد تزوج .

وبهتت المرأة بعض الشيء .. ولكن ما تعرفه عن طيبة نفس
الرجل وقوة إيمانه جعلها تدافع عنه لتلتصق له المعادير فقالت :

- وما العيب في أن يتزوج ؟ .. لقد مضى عايمان على وفاة زوجته
والرجل ما زال - رغم بلوغه الخمسين - في عطاءاته وفي أوج
صحته .. فلم نحرّم عليه ما أحله الله ؟

- هل ندرين من تزوج ؟

وهزت رأسها بالنفي قائلة :

- وأنى لى أن أعرف !

- تزوج سنية الغازية .

وبلوت منها صيحة دهشة لم تستطع كتمانها ووجدت نفسها تكرر - وهى مبهوتة - سنية الغازية ! قل شيئاً غير هذا ! إن الشيخ معاضى رجل عاقل .

وكان من العسير عليها أن تصدق أن الرجل الطيب الرزين الحكيم .. قد أقبل على مثل هذا العمل الجنوني حتى رأت - الغازية - بعينى تحتل دار الشيخ وتجلس معه موضع السيدة .. ترى ماذا أصاب الرجل حتى دفعه الى التردى الى تلك الهاوية ؟ .. أمثله يتزوج المرأة الملوثة العاهرة ؟ .. هذه المرأة التى ليس لها مورد للرزق إلا رنين الصاجات بين يديها .. وهز الردفين ، وعرض جسدها للبيع والايحار ، ولم يحاول أن يستمع نصيح ناصح .. بل ركب رأسه واتبع هواه وأعرض عن الناس وأعرضوا عنه .. وانطوى مع امرائه فى عقر داره .. حتى مرّ بهما عام أو ما يقرب العام .. فوضعت له ابنة محمود .. وكانت فرحة الرجل بالطفل شديدة ، وهو الذى عاش مع امرأته الأولى دهرًا طويلا .. لم ينعم الله عليه بالبين .

وبدأ الناس يصلون ما انقطع من الصلوات بينهم وبينه ، بعد ما رأوا من امرأته ذلك الانطواء والإقلاع عن المسق والفجور وكان أول من وصله .. هى وزوجها .. أجل .. لقد عادت الصلة بين الجارين الى ما كانت عليه ، وحلت المودة محل القطيعة .. وبدأت هى تغبل على -

الغازية - وتتخذ منها صديقة لها .. ومَرَّت الأيام فإذا بها تلاحظ تغيرا ملموسا في سلوك زوجها ومعاملته لها ، فلم تجد من ذلك الحنان والإقبال .. وساء خلقه .. ولاحث لها في الجو بواذر عاصفة تكاد تودي بحياتها .

لم يكن من العسير عليها أن تدرك أن الحية قد بدأت تلعب بدليها ، وتنصب الحبال حول زوجها .. فقد أخذت الألسن تتناقل الإشاعات بأن هناك صلة بين زوجها وبين الغازية .. وأنهما قد اتخذا من الجميزة محلا مختارا لعلاقتها الأئمة .. ولم تكف الغازية بصيد واحد .. وبدأت تمد شباكها لتوقع ما تستطيع من الرجال .. فإذا بها تسمع عن علاقات أخرى بينها وبين ابراهيم شيخ الخضراء ، وبين عبد الصبور ابن العمدة . وكيف المرأة أحرقتها بين الضلوع وقالت لنفسها : لوبة طارئة من الهوى والطيش سرعان ما تزول وفرة جموح سرعان ما يعود بعدها الى سابق عهده وسكينة ، وحاولت جهدها أن تخفي غيرتها وأن تعالجه باللين حتى يعود الى حظيرتها .. وأخيرا عاد الى حظيرتها ، ولكن عودته كانت بشكل لم يخطر لها قط على بال .. ذلك لقد كانت عودته في حلقة الليل محمولا على الأعناق .. مضرجا بدمائه لانفس فيه ولاحراك .

تذكرت كيف دوى في مكول الليل صوت الرصاص .. وهي جالسة تنتظر عودته كما تعودت دائما أن تنتظره ، وقد وضعت ايديها في حجرها .. وكانت ترفع أكفها من آن لآخر الى السماء تدعو الله أن يبقده من تلك الحية الأئمة .. وقد عصفت بغصبا الغيرة والحرور وقد أفرعها دوى الرصاص .. ولكن فزعها لم يكن أكثر من فرغ اليهمين المستغربين أمامها عندما فحنا عبيهما لحظة .. ثم عادتا الى

سبائهما .. كما عادت هي الى الاستغراق في التفكير حتى أحست بعد لحظات بوقع أقدام تقترب في الخارج .. وأصوات مختلفة تتصالح ولها مسم .. ثم دفع الباب وأبصرت على ضوء الذبالة التي تراقص جسد زوجها والدماء تقطر منه .. ودوت منها صيحة ذعر وارتمت على الجسد مولولة نائحة .

وكان الرجل مازال فيه بقية رمق ففتح عينيه واستغفرها ثم اسلم الروح ، وأجرى التحقيق بعد ذلك .. فلم يكشف القاتل .. اذا لم يعرف سوى أن الرجل كان يجلس تحت الجميزة عندما أصابته الرصاصة وقيدت الجريمة ضد مجهول ، ومع ذلك فقد كانت هي تعرف القاتل .. وتعرف يقينا أنه لم يكن سوى ابراهيم شيخ الخفراء .. وأحد المتنافسين على الغازية ، وأنه قد قتل عندما أبصره يجلس واياها تحت الجميزة .. فاحتفى بين عيدان الذرة وأفرغ رصاصته في صدره فأرداه قتيلًا .. ولكن أى فائدة من أن تدلهم على القاتل .. وهي لا تعرف فيما بينها وبين نفسها أن هناك قاتلا سوى المرأة الفاحرة ؟ . أى فائدة تعود عليها وهي لن تفعل أكثر من أن تضيف الى ضحايا المرأة ضحية أخرى .. ثم تظل هي بعد ذلك بمنجاة عن العقاب ؟ لا .. لا .. ان ابراهيم شيخ الخفراء - رغم أنه قاتل - فإنه في نظرها لا يعدو أن يكون ضحية بريئة .. أما القاتل يجب أن تتأثر لنفسها منه فهي المرأة ، ولكن الغازية لم تعطها فرصة الانتقام .. وقد فرّت من القرية تاركة زوجها محطما مهتما .. لا يعريه في الحياة سوى ابنه الطفل .. ومَرّت السنوات بها بعد ذلك وجمرة التآمر تآرجع في نفسها .. وسوس الانتقام يتخرب في صدرها فيفض مضجعها .. ويثقل كاهلها ريقوض ظهرها .. وفارقت الزمن والأحداث .. فضاغفت فدادينها الثلاث .. وأطلق عليها أهل القرية اسم

(المرأة الرجل) .. وكبرت ابنتها وأصبحت فتاة مكتملة ناضجة .. ولما
ابن الغازية وأضحى شابا فارح الطول .

ودفع القدر كلا منهما في طريق الآخر فاذا بكل منهما يقع في
عوى صاحبه ، وكانت تحس الفتى الحقد الذي كانت تضمره لأمه ..
وكانت رعتها المكبوتة في الانتقام من الأم تدفعها الى أن تحاول انتقامها
إليه .. فكانت تحاول دائما أن تبعد به وبين ابنتها .. وبدأت تقرب
إليها الفتى الوحيد الذي يستطيع أن يقف ندا له ويتزعمها منه .. وهو
عليوة ابن ابراهيم شيخ الحفراء .. لقد بدأت تضرب أحدهما بالآخر ..
ابن القائل في عرف القانون .. وابن القائلة في عرفها .. فهذه خير وسيلة
للثأر لزوجها .

وسطعت الشمس دافئة فددت الضباب وبدأت الخطرة ممتدة
على مدى البصر .. وانتهت المرأة من حرق قطعة الأرض .. وانتهت
الآلة من ري البرسيم المسفلوي بعد أن حذرتها أمها من أن تمتد المياه
إلى البرسيم الفحل لأنها قد توت ببعه .. ورفعت بهانة بصرها توقع على
محمود وقد وقف في نهاية الطريق وأخذ يشير لها بخفية فأحست بقلبها
يصفو .. وودت لو تظهر إليه ولكنها كانت تعلم ما تضمره أمها نحوه ..
وتعلم كيف حذرتها من لقائه أو الحديث معه . وتعلم أن عقابها يمكن
أن ترقعه بها لرعلت بأنها تخالف أمرها ولم تكن الفتاة تتحرك بعد
سر بغض أمها للفتى ، ولا كانت تعلم شيئا عن الماضي الدفين في
صدرها .. بل كل ما كانت تعلمه هو أن أبيها قد مات وهي طفلة لا تعي
في الحياة شيئا .. وأن أمها هي كل ما لها في هذه الدنيا .. وانصرف
محمود دون أن تحسر الفتاة على الذهاب إليه .. ومررت الساعات والأم
وابنتها منهسكان في زراعة الأرض .. وقبل العصر بدأت الأم تترك

البنائم وأنيأت استبا أن تستعد للعودة إلى الدار .. ودهشت الفتاة فقد
كان الوقت ما زال مبكرا .. واستغمرت من أمها عن السبب في هذه
العودة المبكرة فأنيأتها ببساطة أن عليه وأباه سيحضران لقراءة الفاتحة
والإتمام الخطوبة .. وأحست الفتاة بقصة في حلقها وبرغبة شديدة في
الكاء .. ولكنها كتمت ما بها ، فقد كانت تعلم أنه لا فائدة من
الاعتراض .. وتبعته أمها إلى الدار ، ولم تمش فترة قصيرة حتى حضر
الشيخ ابراهيم وابنه وقرأت الفاتحة وانتهى الأمر .. وخرج القنن والفتاة
يتزهدان على شاطئ التربة .. وكانت الفتاة لا تكاد تتناسك .. إذ كانت
تمس أنها لا تبصر ما أمامها وأنها على وشك الانهيار بين لحظة
وأخرى .. ووصلت إلى الجميزة وهي مطأطئة الرأس واجمة حزينة ..
ورنت بصرها فإذا بها تنصر أمامها محمود .. وأحست بقلها يكاد يقفز
بين جوانحها .. وتمنت لو استطاعت أن ترتمي بين أحضانها .. ولكنها
لم تجسر .. ووقفت متسمة في مكانها وكان محمود أول من تكلم
فقد سألها في دهشة واستياء :

- إلى أين ؟

واجابه علوية في غضب مكتوم :

- ليس من شأنك تسأل !

- وقال محمود في سخرية واحتقار :

- خير لك أن تتركها وتعود من حيث أتيت .

- أنا أتركها ؟ ! أترك عظيمتي ؟

- عظيمتك ؟ !

ثم نظر الى الفتاة يستوضحها حلبة الأمر فأطرقت وقد سالت من عينيها دمعان صامتان ، وعلم محمود الحقيقة وأدرك أن أمها قد فعلتها .. وأن الفتاة قد أجبرت على ما حدث .. وانتابته ثورة غضب جامحة .. وأدرك أنه لن يستطيع الحياة بدون الفتاة ، وأن من العيث أن يحاول التقاهم مع أمها .. فهجم على عليوه .. واشتبك الإنسان .. ولم نمض لحظة حتى كان عليوه طريق الأرض والدماء تسيل من جرح في جبهته وقد فقد وعيه .. ونهض محمود وهو يلهث وقال للفتاة :

- هيا ..

وسألته وألفاسها تتلاحق من فرط الدعر :

- الى أين ؟

- نهرب من القرية .

ونظرت الى الفتى الراقدة بلا حراك ثم قالت هاسمة :

- عليوه .. أتركه هكذا ؟

ولكنه لم يجيبها بل جرّها من يدها وابتعد بها وسط الظلمة ولم تقاوم الفتاة فقد كانت تحس بالحنين اليه فأخذت تهوّل بحوارره وهي مشدوّهة حيرى .

وسألته في الطريق :

- ألا تذهب الى بيتكم فقد يستطيع أبوك أن يدبر أمرنا ؟

- أوى ! هذا العاجز المريض الواهن المشلول الذي لا يستطيع حتى أن يدبر أمر نفسه .. لتظن منه أن يدبر أمرنا ؟

ان يتا هو أول مكان سيحضر على بالهم أن يبحثوا عنا فيه ..
خير لما أن نطلق الى القاهرة قلن نعدم وسيلة للرزق والمدينة واسعة
تستطيع ابتلاعنا في جوفها فلا يجر علينا أحد .

ومع ذلك فقد استوفيتهما أول شرطي صادفهما في نقطة المرور
الكائنة عند مدخل المدينة .. فقد أبلغ المركز عنهما ، وأعيدا الى القرية
مرة أخرى وأودعا مركز الشرطة وهناك وجدت الفتاة أمها والشيخ
ابراهيم . فأحست بخيبة أليمة وحزن مرير .. وكانت الأم تشعر بشدة
ولدة الانتقام لقد سقط ابن ابراهيم الشيخ صريعا بين الحياة والموت ..
وهاهو ابن (الغازية) سيوضع في السجن بتهمة الشروع في قتل . وفي
تلك اللحظة أقل شيخ وابن المعلم يجر ساقيه ويتوكأ على عصاه ..
ووقف بين القوم يلهث وهو لا يكاد يلتقط أنفاسه .. وتبين فيه القوم
الشيخ معاضى فأخذوا لمرآه وعجب ابنه كيف استطاع أبوه أن يصل
الى المحضر وهو الذي لا يكاد يغادر فراشه .. وتحدث الشيخ موجهها
القول الى المرأة المستعصبة أمامه في عناد وتحد والتي بدت في عينيها
ومضة الغور :

- أنا أعرف ما يرأسك .. أعرف مالا يعرفه أحد من هؤلاء
كلهم .. أعرف طريقتك الصبورة في الانتقام ، ولكنى أكره أن تحمل
أبنائنا أو إنا .. اني وحدي المسئول عن كل ما حدث . أنا الذي
أدخلت الحرلومة الفاسدة في معشرنا الطيب .. وأنا الذي كان يجب
على أن أتحمّل وزر ما فعلت .. كان يجب أن أقل أنا زوجك دفاعا
عن شرطي المعين بدلا من أن أترك الشيخ ابراهيم يقضه وأتركك تتألم
منه ومها في ولديهما .. كان يجب أن أقوم أنا بالتأمر بدلا من أن أدع
الغير يتحمل عني وزره .. ومع ذلك فاني لا أجد الوقت قد فات فانا

أشعر أبى قادر على أن أثار نفسى ولك .. وأن أحمل العبء عنكم جميعا .

وانتفض الشيخ العاجز ، وفى لمح البرق ، وقبل أن يدرك أحد من الجمع ما ينوى أن يفعل .. اختطف بندقية من يد أحد الخقراء ثم أفرغها فى صدر ابراهيم شيخ الخقراء .. وجر الرجل صريعا ، وألقى الشيخ سلاحه وهو يقول :

- هكذا يجب أن يكون الثأر .

ثم حاول أن يتلمس عصاه ليتوكأ عليها .. ولكن قواه التى حسدها فى لحظة الثأر كانت قد خارت .. لقد استنفدت فعلته كل مابقى من زيت فى سراج حياته .. فكانت ثورته أشبه بومضة برق خبت بعد اشتعال .

وهوى الشيخ فى مكانه وتكأ كأ عليه الخقراء .. ولكنه كان قد أفلت من بين أيديهم .. لقد أطلقوا على جسده ، أما روحه فكانت قد صعدت هاربة .

وحر الحراس حسدى الشيخين الى الخارج ، وأحست أم بهانة أن جدوة الثأر فى نفسها قد انطفأت .. وعجبت لنفسها كيف أمضت السنين الطوال تذكى لهيبها وتشعل أوارها .. وأحست أنه لم يعد هناك موجب للانتقام من محمود .. وغادرت المحضر مطأطئة الرأس منحنية الهامة .

ومدت بهانة يدها الى محمود فضغطت عليها معزية وهمت قائلة :

- لقد ظنته عاجزا .. ولكنه استطاع أن يدبر أمرا قبل أن يرحل .. لن أتركك بعد هذا أبدا .